

سياسة التربية والتعليم في الخارج

من محاضرة عامة للدكتور مظهر سعيد

استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين
القاهرة جنتى جامعة القاهرة الامريكية

لو قيس حظ المشتغل بالعلم والثورون العامة في مصر بما يناله من تشجيع جبهة المثقفين من جهة وتقنا الناقدين ومناصرة المتنافسين من جهة أخرى لكنت أسعد الناس حظاً وأكثرهم توفيقاً ولقد ارتفع هذا الصوت الضعيف بينكم في العام الماضي مدافعاً عن العقل المبكين بأسطأ قضيتة للرأي العام فوجدت من حسن تشجيعكم لي قوة ساعدتني على المضي في سبيلي ومن روحك الطيبة روحاً قوتني على الطمع عن الحق . ولكم كان يودي أن أزيد الكرة هذا العام لولا أن صديقي الرئيس الجالس على يميني أبي إلا أن يخرجني من دائرة الطفل الضيقة إلى دائرة المجتمع الواسع دائرة التربية والتعليم العام. وبالرغم من علمي بما يلابس هذا الموضوع الواسع المشعب الأطراف من جفاف شأن كل الموضوعات العلمية لم أزد في قبوله وسأحاول أن أبسطه لحضراتكم بما يتفق مع جفافه وجلاله. وقد رأيت أن أقدم الموضوع لحضراتكم باستعراض بسيط لسياسة التربية ونظم التعليم في مختلف البلدان لا لتبعتها كما هي ونطبقها بحذافيرها وإنما لندرس ما فيها من ضعف تركه وشأنه وحين تقتبته بمد أن نعدته تعديلاً يلائم شأننا ويجعله صالحاً لبلادنا ونحن أيها السادة عند بحثنا للسائل العامة والموضوعات العلمية ننقسم عادة إلى فريقين فريق المحبذين لكل ما هو جديد المتحفزين للأخذ بكل غربي وهنم كل قديم والخروج على التقاليد طفرة واحدة ، الذين يجهلون أن لكل بلد طادات وتقاليد تجعل تطبيق كل جديد كما هو مستحيلاً — وفريق الجامدين المتعصبين الذين لا يرون في الجديد منفعة ولا خيراً مها عظم شأنه وكبرت قيمته . يتقدم العالم بحطى واسعة إلى الأمام وهم يسرون ورؤوسهم إلى الوراء لا ترى في العالم شيئاً غير الهياكل الخرية والآثار للهمة والحث المحفوزة في دور الآثار. فإلى الأولين أقول تزيوا وإلى الآخرين أقول تقدموا وإليهم جميعاً أقول لندرس أحوال العالم لتكون لنا هذه الدراسة مصباحاً لتضيء به ونموزجاً نسير عليه ولأخذ بكل ما هو حسن لم يكن للتربية في كل عصور الانسانية وأدوار المدنية منذ أن عرف الانسان معنى التربية نظام خاص يصح أن يسمى سياسة . على الرغم من النظم المختلفة التي كانت ترمي الى تربية فريق من الناس أو طبقة من طبقات الأمة تربية خاصة من نظام امبرطة في عهد اليونان إلى نظام

التربية الألمانية أيام حكومة القيصر. وبالرغم من نظريات التربية ذاتها وآراء المتلاسة وعلماء الأجناع أمثال روسو وبستانوتزي وكومينبوس وفروبل — فقد كان العامل والعائق يعلم ابنه أصول الصناعة وضر المهنة ويوجهه في الطرق التي يختاره له. وكذلك كان أبناء الأشراف يتعلمون القروسية والأدب الذي ينبغي أن يتحلوا به كأبناء أشراف في مدارس حرة تعلم من نسله ما تشاء بغير نظام — نعم لم تكن هناك سياسة عامة محدودة بتشريع خاص لتسعة الدولة وتضييق أصوله وترمعه كما ترسم سياستها الحزبية والمالية والسياسية — وانجلترا ذاتها لم تكن لها سياسة عامة للتربية قبل القرن التاسع عشر. فقد صدر أول قانون برلماني بتنظيم التعليم الابتدائي وتعميمه على أسس ثابتة سنة ١٨٧٦. أما التعليم الثانوي فقد صدر به تشريع سنة ١٩٠٢ ولم يكن هناك قبل ذلك التاريخ سوى بضع مدارس قديمة لأولاد الأشراف مثل هارو وايتون لا تعنى بغير حشو أدمغة التلاميذ بالثقافة اليونانية والشعر اللاتيني وآداب المائدة وحل اللوح والصيد والقنص وكل ما يجعل التلميذ «جتلتاناً» قبل أن يكون عاملاً فاقماً يكسب قوته بعمق جيته. نعم صدر أول تشريع لتنظيم التعليم الثانوي سنة ١٩٠٢ أي حوالي الوقت الذي قام فيه التعليم الثانوي في مصر ولكن شتان بين ما وصل إليه هناك وبين ما انحط إليه هنا. فهناك يخرج شاباً فاعيل لا نفسهم وبلبلادهم يعرفون دقائق الحياة الجدية حياة العمل الصالح المشرف. أما هنا فيقتل ذكاه الشاب ويقهر عقله ويضطرب فكره ويمتلئ ذهنه بالأشياء النظرية التافهة التي لا تفني ولا تشر في حياته المقبلة

وأراني مضطرباً للأكثر من الاقتباس وضرب الأمثال من النظم الانجليزية لالأنها في نظري أفضل من غيرها. ولكن لأن إنجلترا قد استطاعت في ربع قرن من الزمان أن تغلب على جمود رجال الدين واهواء السياسيين واعتراضات الاقتصاديين فأخرجت للعالم نظاماً ديموقراطياً يتساوى فيه — كما يقول كروايزه الثرنسي ابن الأمير مع ابن الفقير — ذلك لأن التشريع هناك لا تقوم به هيئة وزارية معينة وإنما هو هيئات تختلف من حيث ميزاتها وتتحد من حيث العمل وتعمل مستقلة بعيدة عن الأهواء السياسية والنزعات الحزبية ولا تتأثر برأي فيلسوف ولا عالم ولا وزير وتدرس ما يوكل إليها من الموضوعات في ضوء الحقيقة وحدها ثم تتعاون جميعها لتحقيق غرضها الأسمى. ولنتناول الآن العوامل التي ساعدتهم على وضع تشريع صحيح وسياسة قوية

أولاً: من الذي يضع سياسة التعليم؟ قد تدهشون إذا قلت لكم أن الطفل الصغير يتوخذ رأيه في السياسة التي ستترتب عليه في تربيته وتعليمه. ذلك لأن غشاء النفس يتشكون رأيه ويدقق من حقه لأنهم أدري بنسبتهم ومزاجهم. وهؤلاء لهم الرأي الأعلى — لأن الرجل العادي كما يقول زعيم رجال التربية المير جون آدمس معاً أوتي من رجاحة العقل وقوة الملاحظة ودقة التفكير لا يعرف حاجات طفله ولا ما يوافق نسيته ومزاجه وكل ما يستطيع أن يفعله هو

أن يفرض عليه نظاماً لا يصلح له وإنما يصلح لمخلوق غريب له جسم قتل وعقل رجل
 وعلى هؤلاء آباء التلاميذ أنفسهم لأن سياسة التربية سوف تفرض على أولادهم وطم لجاز أو
 اتحاد يعبر عن آرائهم ويؤم البرلمان بالمخضوع لها والاستماع لمشورتها وإنه ليسني سيداتي
 المصريات ان أقول ان اتحاد الآباء في إنجلترا لم يؤسس رجل من كبار رجالها ولا زعيم
 من عظمه زعمائها وإنما أسته سيدة هي الآكة شارلوت ماسون . وكذلك يشترك المدرس
 في التشريع . فذلك المدرس المسكين الذي ينظر إليه في بلادنا نظرتنا إلى الآكة تتوهم بما يفرض
 عليها من عمل من غير أن يكون لها رأى يحترم أو فكرة تقدر . أما في إنجلترا فكل مدرس
 عظم مركزه أو صغر كبر مرتبة أو ضؤل عضو في اتحاد المدرسين وهذا الاتحاد يدافع عن
 حقوقهم فلا يسمح لكائن من كان أن ينادس المهنة بغير إجازة والكل في نظره سواء . فالمدرس
 له رأي في سياسة التعليم ولا يطالب بتنفيذ ما يعلى عليه تنفيذاً أعمى
 وهناك لجان استشارية تضم أرباب الأعمال وأصحاب المتاجر والمصانع الكبيرة يؤخذ رأيها
 في كل نظام جديد قبل إدخاله لأن الظروف الاقتصادية والأحوال الصناعية تتحكم حتماً في سياسة
 التعليم . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في نشر المدارس الصناعية في مناطق الانتاج والتجارية في
 مناطق التوزيع . وهم كذلك يحددون مبلغ حاجة كل فرع من فروع الحياة العامة إلى المتعلمين
 بحيث لا يكون في البلاد يوماً ما عدد كبير يزيد عن الحاجة في أية مهنة أو صناعة . وفوق هذه
 اللجان لجان الوزارة الاستشارية ولجنة رئيس الوزراء ثم اللجان البرلمانية وهي تتألف عادة من
 كبار رجال التربية والأعمال الذين يوثق بكمائهم ويطمئن إلى تشريعهم لأن طائفة كبيرة من رجال
 البرلمان هناك يصلون إلى كراسي النيابة من كراسي الجامعات ومعامل العلم . ودور الصناعة
 ولذلك لا يتخلو برلمان واحد في إنجلترا من خمسة عشر ممثلاً من علماء التربية وللجامعات خمسة
 كراسي خاصة بها . وهذه اللجنة تقرر آراء سائر اللجان فلا يجتمع اعضاؤها وفي أيديهم أقلام
 حراء عرضها عرض السموات والأرض يشطبون بها ما لا يوافقهم ويستبطلونها بما يشاؤون
 وإعناهم يوقفون بين مختلف الآراء ويعدئذ يصور المرسوم . ولا يفهم من هذا النظام
 الدقيق الذي يبدو جامداً لا يفلت منه إنسان أن السياسة العامة ستكون حتماً متناهية في الدقة
 إلى درجة الجعود فهي على العكس مرة ، والمشرعون يتدرون ما يعترضهم من الصعوبات
 وما يمكن أن يحصل من التعديل في المستقبل . ففي سنة ١٨٥٢ صاح ماثيو آرنلد مسيحية
 الهائلة ونادى بأن التعليم في المدارس الثانوية القديمة عن طريق الكتب وحدها يتصل بين
 المتعلم والحياة العملية ومن ثم وجب على الحكومة أن تقضي على هذه المدارس أو تضع تشريعاً
 جديداً يجعل برامج التعليم مرة مرونة تجعلها صالحة لكل متعلم وأن تخفف المنهج وتكثر من
 الاختيار في المواد حتى لا يرهق المتعلم . فأمرعت مقاطعة وست ويدفع إلى إدخال الكثير من

التعديل في مدارسها حتى أصبح للمدرسة الواحدة منبهجان او ثلاثة وقسمت العلوم الى مجاميع يختار التلميذ منها ما يوافقهُ ويتفق واستعداده . وانتشرت الفكرة وأخذت ولايات كثيرة بها واخيراً صدر التشريع بإنشاء المدارس المتوسطة التي تمتاز على المدارس الثانوية القديمة بمرورتها . ورددت الامم المتعدنة صدى هذه الصيحة فأدخلت التحا تعديل اوركيرش وايطاليا تعديل لمباردو راديش واصبحت البرامج مرنة يرتاح اليها كل طالب . أما أمريكا فقد بذتهم جميعاً في مرونتها سعياً في تحقيق فكرة الرئيس إيليتوت في أن تعطي التربية للاميركين حرية لم يعرف العالم لها مثيلاً من قبل . ووضعت جامعات كثيرة درجات لكل علم وما على الطالب إلا أن يختار من مجموعة العلوم المائتين او تزيد مجموعة توافق رغباته بحيث يكون مجموع نقطها الرقم المطلوب أما هنا فالتلميذ مطالب بتحصيل العلوم جميعها وقد فشل المرة بعد المرة في امتحان عام ويضيع مستقبله لروبه في الخط كأنه قدر لكل الناس ان يكونوا خطاطين او يفشل لسقوطه في الالعب الرياضية . وهم كذلك حرصون على التثريث في إدخال ككل نظام جديد فلا يغيرون المنهج في سبتمبر ثم يعيدونه في اكتوبر فيحاز المدرس في نوفمبر لانه لا يعرف ما سوف ينسره في ديسمبر . فهم قبل إقرارهم لمشروع جديد يجربونه في مدرسة او عدد من المدارس فاذا ضلح وظهرت نتائجها بعد ثلاث سنوات إلى خمس طبقوا بالتدرج في جميع المدارس وقد أشارت اللجنة الوزارية الاستشارية سنة ١٩٢٥ بأن يستثنى من نظام التعليم العام عدد من المدارس في كل مقاطعة تسمى مدارس التجارب فهم مثلاً لما رأوا نفاذ نظام النقل من فرقة إلى فرقة أخرى كل عام لصعوبة اعادة التلميذ الراسب المتررر كنه بعد أن اعمل شأنه تاماً كاملاً فيرسل تاماً بعد عام وينتهي به الأمر الى الطرد من ذلك النوع من التعليم بعد أن يضيع من عمره جانب كبير ويصح عضواً عاطلاً أشل في جسم المجتمع فكروا في ادخال نظام النقل كل ثلاثة اشهر من ثلث المترر الى الثلث الآخر فن راسب في ثلث المترر ثلاث دفعات متتالية حول الى نوع آخر من التعليم ولم يضع عليه من عمره إلا عام واحد . ولكنهم لم يبادروا الى ادخال هذا النظام المعقول دفعة واحدة وانما جربوه في اربع مدارس من مدارس بلدية لندرة خمس سنوات ونجح نجاحاً باهراً وهم آخذون الآن في تعميمه

ثانياً - ماهي التربية وما هو الفرض منها ؟

الجواب عن هذا السؤال يحتم على استعراض تاريخ التربية من قديم الزمان وبيان الاختلاف بين وجهات نظر العلماء والمربين من حيث اغراض التربية في كل عصر . ولكن لن ارهقكم وارهق نفسي معكم بالحوض في هذا الموضوع الواسع فأكتفي ببيان احداث الآراء - ذلك لان آراء العلماء القدماء كانت مبنية على مشاهلتهم وقوة تفكيرهم وهذه كلها لا تصلح لاستخلاص نتائج عامة يصح ان تطبق على كل انسان في كل زمان ومكان . فتمريف هاملتون الذي

يقول بأن الغرض من التربية أعداد الفرد لأن يكون مهندساً ماهراً أو طبيباً حاذقاً أو معلماً قديراً ثم بعدئذ يتعلم كيف يكون انساناً مهذباً راقياً، يتناسى الناحية الانسانية. وتعريف جماعة الانسانيين بأن التربية تجعل الفرد انساناً مهذباً ذا شخصية قوية تجذب اليها النفوس وتجذب فيها الناس ثم بعدئذ يتعلم كيف يكسب قوته بعرق جبينه عن طريق العمل المادي، يتناسى الناحية للمادية. وقول جماعة النعميين الذين يرون ان يدفع المتعلم في تيار الحياة العملية دفعة واحدة من غير حاجة الى مدارس فيكون صالحاً أو عاملاً لا يعرف الاكل ما يتصل بحياته العملية اتصالاً مباشراً ثم بعدئذ يصير شاباً مهذباً متعلماً، يتناسى ناحيتي الثقافة والانسانية معاً. هذا كله كلام قديم لا يتشئ مع روح العصر الحاضر ونتائج للمباحث العلمية

اما النزعة الحديثة فتخالف كل هذا. ولاجل ان تفهما على حقيقتها يجب ان ندرسها في جو صاف هادىء بعد ان نتجرد من زخامتنا وتأثير النظام الذي نشأنا عليه. وألفناه فأصبحنا نعتقد انه صالح لكل زمان ومكان ما دام قد صلح لنا من قبل. وقد يمكنا كان ضيق النظر والتأثر بالمألوف سبباً في فشل مشروع «شاتلورث» القائل بادخال العلوم العملية والاشغال اليدوية في المدارس كلها لأن اعضاء لجان التشريع وقتئذ كانوا من العلماء خرمحي الجامعات الذين لم يألفوا غير نظام دراسة العلوم والآداب. فالنزعة الحديثة ترمي الى الديموقراطية في التعليم والحرية في النظام — كلمات خلاصة تجذب انظار الناس اليها فتعسيهم عن تفهم حقيقتها — اي شيء تعني بالحرية ؟ — اي ان يفعل الانسان كل ما يريد — كما يقول عامة الناس — كلا ؟ فهذه هي التوضى بعينها. اذ ليس هناك شيء اسمه الحرية المطلقة — ام هي كما يقول منكبو: ان يفعل الانسان بمحض ارادته ما يجب عليه فعله ؟ فن الذي يحدد الواجب للتلميذ الصغير ؟ ان كان ابوه او معلمه وهؤلاء كما قلنا لا يرون بعيني الطفل، فأين هي الحرية ؟ وان كان الطفل بذاته. فهو لا يدري ما يجب وما لا يجب فعله ؟ ام هي على رأي روسو السلي ان لا يرغم الانسان على فعل شيء لا يريد هو. هذا حق. فالحرية في التعليم هي ان لا يرغم التلميذ على فعل شيء لا يريد او تعلم علم لا يميل اليه. لان في ارضاه قتلا لمواهبه وتحرفاً لميوله وخلقاً لروح الثورة ضد الحياة والنظم القائمة في نفسه — الحرية هي ان يربي الطفل نفسه بنفسه — او كما يقول دكروي — بلحياة للحياة ذاتها. وفي هذا يقول الدكتور سيريل نوروود — اتنا بارقامنا القتل على فعل ما لا يريد نسيء اليه فنحطه آلة جامدة او عضواً مثلولاً او ثأراً مترداً. هذه هي نزعة المدرسة الحديثة مدرسة منتوري ولوزنزوفي ايطاليا ودكروي في سويسرا وبلجيكا وهربارت — زيلر في لمانيا وأودنوالث في النمسا ودالتون في انكلترا وأميركا. كل هذه المدارس مهما اختلفت طرائقها وتمعدت نظمها ما هي الا صور متعددة للمدرسة الحديثة — مدرسة الحياة — وليست للمدرسة الحديثة بناء يضم افراداً يتعلمون بها بطريقة مخصوصة ونظام

موضوع ولا طريقة خاصة للتدريس وإنما هي فكرة سامية تتلخص في الاحتكاك بين الطفل والمجتمع ؛ بين التفكير الفردي والتفكير العام — وموادها التي تدرسها الحقيقة والدوق السليم — هي فكرة تُخدم الحقيقة وليس لها من غرض سوى مصلحة الطفل وتنمية قواه النفسية . لا قواه العقلية وحدها . للمدرسة التي تخرج على نظام المواعيد المتررة ونظام التعلم الجمعي وشبكة الامتحانات . هي كما يقول أدامز . كيف كان نوعها يدعو قراطياً أو أرسطوياً ترمي الى اظهار شخصية الفرد الحقيقية — وانها لن تصل بالتعليم الى طريق الكمال الا اذا خدمت الحواجز التي تقام بينه وبين الحياة العملية . ولذلك ترمي النزعة الحديثة الى التحرر بأوسع معانيه . بمعنى أن يهباً لكل فرد في المجتمع فرصة عادلة تمكنه من تعلم ما يريد وما يتجه اليه باستعداده وينتفع بمواهبه فتسعد حياته ويسعد الناس معه

هذه النزعة ستقضي بالتدرج على المدارس النظرية التي تعرفها . وتبديها بدارس متوسطة مرتبة . وقد كانت نسبة تلاميذ هذه المدارس الى مجموع التلاميذ في كل انواع التعليم الثانوي (بعد الابتدائي) في إنجلترا ٣٪ فقط ولكنها تزداد بالتدرج عاماً بعد عام . وهامي مقاطعة نوتنجهام ترسل الآن كل عام ١٠٪ من خريجي المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية النظرية و ٤٠٪ الى المدارس المتوسطة . وهذا دليل كاف على ان هذه المدارس اكثر ملاءمة لاتباء الطبقات الوسطى والتفيرة الذين يجب ان توضع سياسة التعليم لتلائمهم لالبناء الاشراف والاغنياء ثالثاً : مراعاة الاحوال الاقتصادية لسبلاد — لان علماء التربية ينشدون مشلاً علياً للتربية قد يستحيل تطبيقها أو قد يتعذر اخراجها الى حيز العمل لكثرة ما تتطلبه من النفقات أو غير ذلك مما يترض السبل من العقبات — فمراعاة الاحوال الاقتصادية والمالية تخفف من غلوهم في مطالبهم . وما يجب ملاحظته ان سياسة التعليم كيفما كانت تريم ليم تنفيذها في عدة اعوام قد تبلغ العشرة احياناً لافي عام أو في شهر واحد . فهم عند التصريح الآن لا يقبل المستقبل عن نظرهم . فلا تفتح كل ابواب التعليم على مصاريها بحيث يخشى من كثرة العاطلين في حاجة معينة يوماً ما . فاذا رأى المشرعون ان مهنة معينة ستكون مكتظة بمن يزيد عن الحاجة يوماً ما لجأوا الى اقفال هذا النوع من المدارس ليخفف الضغط عن تلك المهنة في المستقبل كما فعلت إيطاليا أو تركوها كما هي لمن لا ينفق استعداده الطبيعي في غيرها وإنما شجعوا غيرها بمختلف الوسائل حتى يكثر الاقبال عليها

كذلك ينظر المشرعون الى سياسة التعليم جملة واحدة كوحدة مرتبطة الاجزاء بحيث تسير المناهج جنباً لجنب ولا تكون هناك حدود فاصلة بين طبقات التعليم . فلا يوضع برنامج التعليم الابتدائي عن حدة ثم يترك على الرف ويشعر في خمس برنامج التعليم الثانوي وبمثل ذلك حتى يهيئ الله له من يبعث به من مرقده . في وقت يكون العلم الحديث قد سبق ما فيه يمر اجل « البقية في باب الاختيار العلمية »